# الفصل السابع عشر
# أزواج النبى ﷺ

زينب بنت خزيمة وام سلمة - قصة زينب بنت جحش وكلام المستشرقين فيها - وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح.

## صيحة المستشرقين فى مسألة زينب بنت جحش:

فى الفترة التى وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوّج محمد زينب بنت خُزَيْمة، ثم تزوج أمَّ سَلَمة بنت أبى أمَيَّة بن المُغيرة، ثم تزوج زينب بنت جَحْش بعد أن طلقها زيد بن حارثة، وزيد هذا هو الذى تبنّاه محمد وأعتقه منذ اشتراه يَسار لخديجة. ها هنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشرون: انظروا! لقد انقلب محمد الذى كان بمكة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا، رجل شهوة يُسيل منظرُ المرأة لُعابه، ولا يكفيه ثلاث نسوة فى بيته، بل يتزوج أولئك الثلاث اللاتى ذكرنا، ويتزوّج من بعدهن ثلاثًا أخريات غير رَيْحانة. وهو لا يكفيه أن يتزوج ممن لا بُعُولة لهن؛ بل هو يُشْغَف حبًّا بزينب بنت جحش وهى تحت زيد بن حارثة مولاه؛ لغير شىء إلا أنه مرَّ ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب، وكانت فى ثياب تُبدى محاسنها، فوقع منها فى قلبه شىء لجمالها، فقال: سبحانَ مقلب القلوب! ثم كرّر هذه العبارة ساعة انصرافه، فسمعتها زينب ورأت فى عينيه وهج الحب، فأعجبت بنفسها وأبلغت زيدًا ما سمعتْ فذهب من فوره إلى النبى يذكر لهُ استعداده لتسريحها؛ فقال له: أمْسِك عليك زوجك واتّق الله. لكن زينب لم تُحسن من بعد عشرته فطلقها؛ وأمسك محمد عن زواجها وقلبه فى شغل بها حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكونَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1]. إذ ذاك تزوّجها فأطفأ بزواجها لاذعَ حبه ومتوهج غرامه. فأىّ نبىّ هذا! وكيف يُبيح لنفسه ما حرّمه على غيره! وكيف لا يخضع للقانون الذى يقول إن الله أنزله عليه! وكيف يخلق هذا «الحريم» الذى يثير فى النفس ذكر الملوك المترفين بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين! ثم كيف يبلغ منه الخضوع لسلطان الحبّ فى شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثم يتزوجها من بعده. وكان ذلك محرَّمًا فى الجاهليَّة، فأباحه نبىُّ المسلمين إرضاءً لهواه، واستجابة لداعى حبه.

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧.

**بنت جحش كما يصورها المستشرقون:**

ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العِنان حين يتحدَّثون من تاريخ محمد فى هذا الموضوع، حتى لَيُصوِّر بعضهم زينب ساعة رآها النبىّ وهى نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنّه من كل معانى الهوى، وَلْيَذْكُر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممدّدة على فراشها فى ثياب نومها، فعصف منظرُها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم مافى نفسه وإن لم يُطق الصبر على ذلك طويلًا !! وأمثال هذه الصورة التى أبدعها الخيال كثيرٌ، تراه فى مُوير وفى بِرْمِنْجُم وفى واشِنْطُنْ إِرْفنجْ وفى لَامَنْس وغيرهم من المستشرقين والمبشرين. ومما يدعو إلى أشدّ الأسف أن هؤلاء جميعًا اعتمدوا فى روايتهم على ماورد فى بعض كتب السيرة والكثير من الحديث، ثم أقاموا على ما صوّروا قصورًا من الخيال فى شأن محمد وصلته بالمرأة، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعًا فى القول الراجح، وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات.

**العظماء لا يخضعون لقانون:**

كان فى مقدورنا أن نَجْبَه هذه الأقوال جميعًا بقولنا: فلتكن صحيحة؛ فماذا فيها مما يطعن على عظمة محمد أو على نبوّته ورسالته ؟! إنَّ القوانين التى يجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء، فأولى ألّا يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء. ألم ير موسى عليه السلام خلافًا بين رجلين هذا من شيعته وهذا من عدوّه، فوكز الذى من عدوّه فقضى عليه، وهذا قَتْلٌ محرّم فى غير حرب ولا شبه حرب، وهذا مخالف للقانون. مع ذلك لم يخضع موسى للقانون ولم يطعن ذلك فى نبوّته ولا فى رسالته، ولم يطعن فى عظمته. وشأن عيسى فى مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن محمد ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعًا. فليس يقف أمره عند بسطة فى القوة أو الرغبة، بل خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسُنَنها جميعًا. تَمَثَّل لأمّه مريم روحُ الرحمن بشرًا سويًّا، لِيَهَبَ لها غلامًا زكيًّا، فعجبت وقالت: أنَّى يكون لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنِى بشرٌ ولم أك بغيًّا ! قال الرسول: إن الله يريد أن يجعله آية للناس، فلمَّا جاءها المخاض قالت: يالَيتنى مِتُّ قبل هذا وكنت نَسيًا منسيا. فنادَاها من تحتها أن لا تَحْزَنى قد جعل ربك تحتك سَريًّا. وأتت به قومها تحمله، فقالوا: لقد جئت شيئًا فريًّا. فحدثهم عيسى فى مهده قال: إنى عبد الله... إلى آخر ما قال. ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله، ومن نسبتهم عيسى إلى يوسف النَّجار نسبة لا يزال بعض العلماء من أمثال رينان يأخذون بها، فقد كانت عظمة عيسى ونبوّته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسُنَن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله. فمن العجب أن يدعو المسيحيون المبشرون إلى الإيمان بهذا الخروج عن سنة الكون فى أمر عيسى، وأن يأخذوا محمدًا بما هو دونه، وما لايزيد على أنه سموٌ من

الخضوع لقانون المجتمع يُسْمَح به لكل عظيم، ويسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدّسهم الدساتير وتجعل ذواتهم مصونة لا تمسّ.

**فساد تصوير المستشرقين:**

كان فى مقدورنا أن نَجْبَه هذه الأقوال جميعًا بهذا الردّ، وكان فيه من غير شك ما يُسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين. لكنا فى هذا كنا نجنى على التاريخ ونجنى على عظمة محمد وجلال رسالته. فهو لم يكن، كما صوّر هؤلاء وأولئك، رجلا يأخذ بعقله الهوى، وهو لم يتزوج مَنْ تزوّج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام. وإذا كان بعض الكتّاب المسلمين فى بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول، وأن يُقَدّموا لخصوم الإسلام عن حسن نية هذه الحجة، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد إلى المادية، فأرادوا أن يصوّروا محمدًا عظيمًا فى كل شىء، عظيمًا حتى فى شهوات الدنيا. وهذا تصوير خاطئ ينكره تاريخ محمد أشد إنكار، وتأبى حياته كلها أن تُقرّه.

**إلى الخمسين لم يتزوج غير خديجة:**

فهو قد تزوج خديجة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، وهو فى شرخ الصّبا وريعان الفتوة ووَسَامة الطلعة وجمال القسَمات وكمال الرجولية. مع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجه ثمانياً وعشرين سنة حتى تخطّى الخمسين، هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرًا شائعًا بين العرب فى ذلك العهد. وعلى حين كان لمحمد مندوحة فى التزوّج على خديجة، أن لم يعش له منها ذكر، فى وقت كانت توأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفًا. وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط فى أن يُشرك معها غيرها فى فراشه. ولم يُعْرَفْ عنه فى حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مَفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء يتبرّجن فيه ويبدين من زينتهنّ ما حرم الإسلام من بعدُ... فمن غير الطبيعى أن تراه وقد تخطى الخمسين ينقلب فجأة هذا الانقلاب الذى يجعله ما يكاد يرى بنت جحش، وعنده نساء خمس غيرها من بينهنّ عائشة التى أحب وظل يحب طوال حياته، حتى يُفْتَنَ بها وحتى تستغرق تفكيرَه ليله ونَهاره. وليس من الطبيعى أن تراه، وقد تخطّى الخمسين، يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات، وفى سبع سنوات تسع زوجات، وذلك كله بدافع من الرغبة فى النساء، رغبة صوّرها بعض كتاب المسلمين، وحذا الإفرنج حذوهم، تصويرًا لا يليق فى ضعته برجل مادّى بَلْه عظيما أستطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغيّر مجرى التاريخ، وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرّة أخرى وتغير مجرى التاريخ طورًا جديدًا.

**خديجة وحدها التى أعقبت:**

وإذا كان هذا عجيبًا وكان غير طبيعى، فمن العجيب كذلك أن نرى محمدًا تلد له خديجة

ما ولدت من بنيه وبناته إلى ما قبل الخمسين، وأن نرى مارِيَة تَلد له إبراهيم وهو فى الستين، وألّا تلد غير هاتين من نسائه، وكلهنّ بين شابَّة فى مقتبل العمر لا يمنع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطَّت الثلاثين أو تخطَّت الأربعين وكان لها ولدٌ من قبل. فكيف تفسَّر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبىّ، هذه الظاهرة التى لا تخضع للقوانين الطبيعية فى تسع نسوة جميعًا ؟! هذا وقد كانت نفس محمد، باعتبار أنه إنسان، تميل من غير ريب إلى أن يكون له ولد، وإن كان مقام النبوّة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أبًا للمسلمين جميعًا.

## زواج سودة بنت زمعة:

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد بكذب رواية المبشرين والمستشرقين فى شأن تعدّد زواج النبى. فهو كما قدّمنا، لم يُشرك مع خديجة أحدًا مدى ثمان وعشرين سنة. فلما قبضها الله إليه تزوَّج سَوْدَةَ بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس. ولم يَرْوِ رَاوٍ أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرًا فى زواجه منها. إنما كانت سودة زوجًا لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبىُّ بالهجرة وراء البحر إليها. وقد أسلمت سودة وهاجرت معه، وعانت من المشاقّ ما عانى، ولقيت من الأذى مالقى. فإذا تزوَّجها محمد بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجلّ الحمد.

أمَّا عائشة وحفصة فكانتا ابنتى وزيريه أبى بكر وعمر. وهذا الاعتبار هو الذى دعا محمدًا أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وبعلى برابطة المصاهرة بتزويجه منهما. وإذا صح القول فى عائشة وفى حبه إيَّاها، فإنما ذلك حب نشأ بعد الزواج لا حينه فهو قد خطبها إلى أبيها وماتزال فى التاسعة من عمرها، وقد بقيت سنتين قبل أن يبنى بها. فليس مما يرضاه المنطق أن يكون قد أحبَّها وهى فى هذه السنّ الصغيرة. يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر فى غير حبّ بشهادة أبيها نفسه. قال عمر: «والله إنْ كنا فى الجاهليَّة ما نَعُدُّ للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم. قال: فبينا أنا فى أمر آتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعتَ كذا وكذا! فقلت لها: وَمالكِ أنت ولما هاهنا وماتكلفك فى أمر أريده! فقالت لى: عجبًا لك يا ابن الخطاب! ماتريد أن تُراجَع أنت وإنَّ ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان! قال عمر: فآخُذُ ردائى ثم أخرجُ مكانى حتى أدخل على حفصة، فقلت لها: يابنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنَّا لنراجعه فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يا بنيَّة لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحبُّ رسول الله ﷺ إيَّاها... وقال: والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك». أفرأيت إذًا أنَّ

محمدًا لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة لحب أو لرغبة، وإنما تزوج منهما ليمتّن أواصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة فى شخصَى وزيريه، كما تزوج من سَوْدَة ليعلم المجاهدين من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوةً وذرية ضعافًا يخافون عليهم عَيْلَة.

يقطع فى ذلك زواجه من زينب بنت خزيمة ومن أم سلَمة. فقد كانت زينب زوجًا لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذى استشهد يوم بدر، ولم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت أمّ المساكين؛ وكانت قد تخطَّت الشباب، فلم يك إلا سنة أو سنتان ثم قبضها الله فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبىّ التى تُوفيت قبله. أمَّا أمّ سَلَمة فكانت زوجًا لأبى سَلَمة وكان لها منه أبناء عِدَّة، وقد سبق القول: إن أبا سلمة جُرح فى أحُد ثم بَرَأ جرحه، فعقد له النبى لحرب بنى أسد فشتّتهم وعاد إلى المدينة بما غنم؛ ثم نَغَر عليه جرح أحُد ومازال به حتى قضى عليه. وقد حضره النبى وهو على فراش موته، وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه. وبعد أربعة أشهر من وفاته خطب محمد أمَّ سلمة إلى نفسها؛ فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطَّت الشباب، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها. أبعد ذلك يزعم المبشرون والمستشرقون أن أم سلمة كانت ذات جمال هو الذى دعا محمدًا إلى التزوّج منها! إن يكن ذلك فقد كانت غيرها، من بنات المهاجرين والأنصار، مَنْ تفوقها جمالاً وشبابًا وثروة ونضْرة ومن لا يَبْهَظُه عبء عيالها. لكنه إنما تزوَّج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خُزَيمة، والذى زاد المسلمين به تعلقًا وجعلهم يرون فيه نبىّ الله ورسوله، ويرون فيه إلى جانب ذلك أبًا لهم جميعًا: أبًا لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز، أبًا لكل من فقد أباه شهيدًا فى سبيل الله.

## التمحيص التاريخى وما يستنبطه:

ماذا يستنبط التمحيص التاريخى النزيه مما تقدم؟ يستنبط أن محمدًا نصح بالزوجة الواحدة فى الحياة العادية. هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياة خديجة، وبه نزل القرآن فى قوله تعالى: ﴿فانْكِحُوا مَا طابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ ألَّا تَعْدِلوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَو حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلوا كُلَّ المَيْلِ فتذرُوهَا كالْمُعَلَّقَةِ﴾[2]. ولقد نزلت هذه الآية فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعًا، ونزلت لتحدّد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حدّ له، مما يسقط قول القائلين بأن محمدًا أباح لنفسه ما حرّم على الناس. ثم نزلت لتُشيد بفضل الزوجة الواحدة وتأمر بها لمجرد الخوف من عدم العدل، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع. على أنه رأى فى ظروف حياة الجماعة

(١) سورة الحجرات آية ١٣.
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦.

الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل. وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشهد منهم. ولَعَمْرُك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة، حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها، خير من هذا التعدد الذى أبيح على طريق الاستثناء؟! وهل يستطيع أهلُ أوربا، فى هذا العصر الذى عَقب الحرب الكبرى، أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نظام نافذ بالفعل إن استطاعوا أن يقولوا إنه نافذ بالقانون؟ أوَ لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى الذى عقَب الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاونًا قد كان من شأنه أن يُعيد إلى الحال الاقتصادية شيئًا غير قليل من التوازن؟! إننى لا أريد أن أقطع بالحكم لكنى أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبير المدبر، مع القول دائمًا بأنه متى عادت الحياة العادية فخيرُ ما يكفل سعادة الأسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة.

**قصة زينب بنت جحش - قرابة محمد ﷺ من زينب:**

أمَّا زينب بنت جحش، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووَله؛ فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد، وأنه، وهو المثل الكامل للإيمان، قد طبَّق فيها حديثه الذى معناه: لا يكمل إيمان المرء حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه؛ وقد جعل نفسَه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهليَّة وعاداتها، ويُقِرّ به النظام الجديد الذى أنزل الله هدى ورحمة للعالمين. ويكفى لهدم كل القصة التى قرأت عنها من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أَميمة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله عليه السلام، وأنها ربيت بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مَفَاتن أم ليست كذلك قبل أن تتزوج زيدًا. وأنه شهدها فى نموّها تحبو من الطفولة إلى الصبّا وإلى الشباب، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه. إذا عرفتَ ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسنُها وقال. سبحان مقلب القلوب! أو أنه لمَّا فتح باب زيد عبث الهواءُ بالستار الذى على غرفة زينب، فألفاها فى قميصها ممددة وكأنها «مدام رِكامْييه!» فانقلب قلبه فجأة ونسى سَوْدَة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سَلَمة ونسى كذلك ذكر خديجة التى كانت عائشة تقول: إنها لم تجد فى نفسها غيرة من أحد من نساء النبىّ ما وجدت من ذكر خديجة ولو أن شيئًا من حبها علِق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصِّلة بين زينب ومحمد، وهذا التصوير الذى صوَّرناها به، لا يَدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أىّ أساس من الحق أو أىَّ حظٍّ فى البقاء.

**خطبته إياها على زيد وإباؤها:**

وماذا يُثبت التاريخ أيضًا؟ يثبت أن محمدًا خطب ابنة عمته زَينب على مولاه زيد؛ فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون أخته وهى قرشيَّةٌ هاشميَّة وهى فوق ذلك ابنة عمة الرسول، تحت عبد رِقّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد، ورأى فى ذلك على زينب عارًا كبيرًا. وكان ذلك عارًا حقًّا عند العرب كبيرًا. فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوَّجن من مَوَال وإن أعتقوا. لكن محمدًا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها، وأن يُدرك الناس جميعًا أن لا فضل لعربىّ على أعجمى إلا بالتقوى. ﴿إنَّ أكْرَمَكم عِنْد الله أتْقَاكم﴾[1]. وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله. فلتكن زَينبُ بنت جحش بنتُ عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدْم لعاداتها، معرضة فى ذلك عما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه. وليكن زيد مولاه الذى تبنَّى، والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذى يتزوّجها فيكون مستعدًّا للتضحية التى أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتُّخذوا أبناء. وليُبْدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب ويقبل أخوها عبد الله ابن جحش زيدًا زوجًا لها؛ ولينزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿وما كان لِمُؤْمِنٍ ولا مؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخيرةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبينًا﴾[2].

لم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان؛ فقالا: رضينا يا رسول الله. وبنى زيد بزينب بعد أن ساق النبىّ إليها عنه مهرها. فلمَّا سارت زينب إلى زوجها لم يَسْلَسْ له قيادُها ولا لأنَّ إباؤها، بل جعلت تؤذى زيدًا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رِق. واشتكى زيد إلى النبىّ غير مرَّة من سوء معاملتها إياه، واستأذنه غير مرَّة فى تطليقها، فكان النبى يجيبه: «أمسك عليك زوجك واتق الله». لكنَّ زيدًا لم يُطق معاشرة زينب وإباءها عليه طويلا فطلقها.

وكأن الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، ومن إعطاء الدعىّ جميع حقوق الابن، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى فى الميراث وحرمة النسب، ولا يجعل للمتبنى واللصق إلا حَقّ المولى والأخ فى الدين. فنزله قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ والله يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيل﴾[3]. ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوّج ممن كانت زوجًا لمن ادّعاه، ويجوز للمتبنَّى أن يُتزوَّج ممن كانت زوجًا لمتبنَّاه. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومَنْ مِن العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعًا؟ إن محمدًا نفسه، على قوَّة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره،

---

(١) سورة النساء آية ٣.
(٢) سورة النساء آية ٣٦.
(٣) سورة الأحزاب آية ٤.

قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوَّج زينب بعد تطليق زيد إيَّاها، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصِّلة فى نفوس العرب؛ وذلك ما يريده تعالى فى قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾(١).

## كيف تزوج محمد ﷺ من زينب:

لكن محمدا كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغه للناس؛ فلا يخشى ما يقول الناس فى تزوّجه من زوج زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئًا إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقرَّرة للتبنى، والادّعاء. وفى ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِين حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾(٢).

هذه رواية التاريخ الصحيح فى أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها. فهى ابنة عمَّته يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيدًا، وهو الذى خطبها على زيد، وهو كان يراها بعد أن تزوّجت زيدًا أن لم يكن الحجاب معروفًا يومئذ. على أنه كان من شأنها، بحكم صلة القرابة من ناحية، وأنها زوج دعيِّ زيد من ناحية أخرى، أن تتَّصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها.

## والآن ما رأى المستشرقين فى قصة بنت جحش:

وقد نزلت هذه الأحكام جميعًا، فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إيَّاها وزواج محمد منها بعد ذلك؛ هذه الأحكام التى ترفع المعتَق إلى مكانة الحرّ الشريف، والتى تُبطل حقوق الأدعياء وتقضى عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها. أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكرِّرها المستشرقون والمبشرون، ويردِّدها مُوير وإرْفنج وسِبرنْجرَوفَيْل ودِرْمِنْجم ولامنْس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة محمد؟! ألَا إنها شهوة التبشير المكشوف تارةً والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام خصومةً تأصَّلت فى النفوس منذ الحروب الصَّليبية، هى التى تملى على هؤلاء جميعًا ما يكتبون وتجعلهم فى أمر أزواج النبى، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش خاصة، يتجنَّون على التاريخ، ويتلمَّسون أضعف الروايات فيه مما دُسَّ عليه ونُسِب إليه.

## سمو محمد ﷺ بمكانة المرأة:

ولو أن ما ذكروا كان صحيحًا، لكان فى مقدورنا أن نَجْبَهه بأن العظمة لا تخضع لقانون، وبأن موسى وعيسى ويونس من قبلُ، قد سَمَوا فوق نواميس الطبيعة وسُنن الاجتماع، بعضهم بمولده،

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧.

وبعضهم فى حياته، فلم يطعن ذلك فى عظمتهم. لكن محمدًا كان يضع سنن الاجتماع بوحى ربه، وكان ينفّذها بأمر ربه، وكان بذلك المثل الأسمى، والأسوة الحسنة، فى تنفيذ ما أمَر ربه. أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يطلِّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرع للمسلمين من بعد زواجه منهنّ جميعًا؟ وهل كانوا يومئذ يعفونه من نقدهم؟! على أن معاملة محمد لأزواجه معاملة بلغت من السمو ما رأيت شيئًا منه فى حديث عمر بن الخطاب الذى سقنا، وسترى كثيرًا منه خلال فصول هذا الكتاب، ستكون المثل الناطق على أنه لم يحترم المرأة أحد ما احترمها محمد، ولم يسمُ بها إلى المكان اللائق بها ما سما محمد ﷺ.